

سيرة عنترة والدراسات الاستثنائية

المرقب ، فيقتل ضميما المري ، وهو يصف الحرب فيحسن الوصف ،
و حين يعدد كتاب التراث فرسان العرب يكون على رأسهم عنترة (٨) .

وعنترة يوضح معالم الفروسية ويضع حدودها ، وذلك فيما
يذكر عن قوله لرجل سبه وذكر سواده وأمه واخوته ، فيجيبه عنترة
بان الفروسية هي الشجاعة والاقدام والمبادرة لنصرة الداعي والكرم
والعلم وحسن الفصل في الامور ، والمفة وقول الشعر . يضع عنترة
هذا بقوله للرجل : « ان الناس ليترادفون بالطعمة ، فما حضرت انت
ولا ابوك ولا جدك رفد الناس قط ، وان الناس ليبعون في الفارات
فيرفون بتسويمهم ، فما رأيتك في خيل مفيرة في اوائل الناس قط ،
وان اللبس ليكون بيننا ، فما حضرت انت ولا ابوك ولا جدك خلة
فصل ، وانما انت فقع بقرقر ، واني لاحتضر الباس ، وافي المضم ،
واعف عن المسألة ، واجود بما ملكت يدي ، وافصل الخطة الصمماء ،
واما قول الشعر فستعلم » (٩) .

ويثبت رواية الشعر وشراحه سبق عنترة في هذا الميدان ويؤكدون
خير مذهبه ، ويجمعون ويشرحون قصائده مع مشاهير شعراء
الجاهلية ، كما يتحدثون عن دوافع واسباب قول هذه القصيدة او
تلك ، وهم يذكرون حبه ابنة عمه ، عبلة ، وتقنيه باسمها ومباهاته
في حضورها بخصاله وفعاله التي هي نموذج لفعال وخصال الفارس
العربي ، حتى ذكر ، بان النبي الكريم حين انشد قول عنترة في
التعفف وعزة النفس :

ولقد ابنت على الطوى واظله حتى انال به كرم المائل

قال : « ما وصف لي اعرابي قط فاحببت ان اراه الا عنترة » (١٠) .
وعنترة يتباهى بشجاعته ومروته امام عبلة ابنة عمه مالك ، فيقول :

هلا سالت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقائع انني اغشى الوفي واعف عند المضم (١١)

ويؤكد عنترة لعملة وفاده وسماحته من جهة ، وغضبته الساحقة
للثار من الظالمين ، فيقول :

ولقد نزلت فلا تظني غيره
انني علي بما علمت فانسي
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل
مني بمنزلة المحب المكرم
سمح مخالفتي اذا لم اظلم
مر مذاقته كلهم العلقم

لقد اجمع كتاب التراث العربي ورواة سيرة عنترة ، على كون
عنترة - او عنتر - بن شداد العبيسي هو احد مشاهير فرسان العرب
وشعرائها الجاهليين . تقول كتاب التراث ورواة السيرة ، ذلك لان
بين ايدينا الان نوعين من المصادر التي تتحدث عن هذا الفارس ،
هما : سيرة عنترة بن شداد العبيسي من جهة ، وبقية كتب
التراث من جهة اخرى . (١)

اما كتب التراث فتذكر ان ام عنترة كانت امة حبشية اسمها
زبيبة ، وان اياه شدادا العبيسي انكر عنترة صغيرا ، فخدم النساء
ورعى الماشية شأن العبيد ، وان اياه هذا اعترف بعنترة كبيرا ، فكان
فارس عيس البرز في حروبها وغزواتها (٢) ، وكانت حرب داحس
والقبراء هي الميدان الذي ظهرت فيه فروسية عنترة ، حضر معظم
ايامها ، وابدى من البطولة والمروءة ما جعل العرب تنظر اليه
نظرتها الى فرسانها الافذاذ ، حتى قال عمرو بن معد يكرب : « ما
ابالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حراها وهجيناها » .
والحران هما عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، اما
الميدان فهما عنترة والسليك بن السليكة (٣) ، وذكر كذلك ان
الحطيئة اجاب عمر بن الخطاب حين سألته عن حروبهم في الجاهلية
قائلا : كنا الف فارس حازم ، وكان قيس بن زهير فينا وهو حازم
فكنا لا نصميه ، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم
اذا حجم ، وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأي فكنا نستشيره
ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا ناتم بشعره . وحين غزت
بنو عيس بني تميم وعليهم قيس بن زهير ، انهزمت بنو عيس وطلبتهم
بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ، ولحققتهم بكبة من الخيل ، فحامسى
عنترة عن الناس فلم يصب مدبرا ، فقال قيس بن زهير : والله ما
حمى الناس الا ابن السوداء (٤) .

و حين اصطدمت عيس بتميم يوم الفروق ، كر عنترة كرته ، فقتل
فارسهم معاوية بن نزال ، واجاب حين سئل عن عدد قومه في ذلك
اليوم : « كنا مائة ، لم نكثر فنتكل ولم نقل فنزل » (٥) . اما في
يوم الجراجر وحين التقت ذبيان ومن معها بعيس على ذات الجراجر
اقتتلوا قتالا شديدا ، وظهرت في تلك الواقعة شجاعة عنترة (٦)
و حين اغارت بعض احياء العرب على قوم من بني عيس واصابوا منهم
فتبعهم العبيسون وقاتلوه ، كر عنترة على القوم وقاتلهم واستنقذ ما
في ايديهم من الفتيمة ، فادعاه ابوه بعد ذلك . وكان عنترة اشجع
اهل زمانه واجودهم بما ملكت يده . (٧) ويشارك عنترة في يوم

ويعتزج الحب بالحرب في ذهن الفارس العربي، فتتراى له اشراقه نسر الحبيبة في لعان السيوف التي تنهل من دمه . فيقول :
ولقد ذكرك والرماح نواهل
فوددت تقييل السيوف لانها
مني وبيض الهند تظفر من دمي
لمت كبارق نغرك المتسم

وعنترة - كبقية فرسان العرب - ولوع بعدة الفروسية : الخيل والسلاح ، يذكرها ويتفنى بها في كل المناسبات ، يقول :

لما رأيت القوم اقبل جمعهم
يعمون عترة والرماح كانوا
ما زلت ادمعهم بثغرة نحره
اشطان يثر في لسان الادم
يتدامرون كروت غير مذم
ولباته حتى تسريل بالدم

وهو يكلم الحصان فيكاد الحصان ان يجيب ، يقول عنترة في هذا :
لو كان يدري ما المحاوره اشكى
او كان يدري ما جواب تكلمي

اما سيف عنترة فو صارم لا يفل ، فهو يصفه قائلا :

وسيفي صارم قبضت عليه
وسيفي كالمفيدة وهو كعصي
اشاجع لا ترى فيها انتشارا
سلاحي لا اقل ولا مظارا

ان افراس عنترة وسيفه ، ورمحه وكل آلة الحرب ، واشاجع عنترة الخالية من اللحم المكتنز ، ومروره وسماحته ووفاءه وعفته ، وبروزه في مواقف الكر والشجاعة والاقدام لتبني كلها عن شخصية الفارس الشاعر العربي مسجلة تاريخيا في كتب الادب والتاريخ والتراجم والشعر . ومن هنا نساغل قائلين : ان كان هذا الفارس قد ورد ذكره ونعته في كتب التراث على الصورة التي قدمناها ، فمن يكون عنترة بن شداد العبسي كما تحدث عنه رواة السيرة ؟

لقد وردت حكايات عنتر بن شداد العبسي مروية من قبل رواة يتصدرهم الاصمعي ، تلك الحكايات مجموعة فيما يسمى بسيرة عنتر وهي تقع في اثنين وثلاثين جزءا مكتوبة بالنثر البسيط المسجوع ، يتخلله ما يقارب عشرة آلاف بيت من الشعر (١٢) . وقد ذكر ان هناك سيرة عراقية واخرى حجازية ، الا ان الواقع يثبت انها سيرة واحدة فقط . وقد قيل ان الاصمعي جمعها باسم الخليفة هارون الرشيد ، ويرى البعض انها جمعت بعد ذلك التاريخ . (١٣)

تحتوي السيرة على لمحات من التاريخ الجاهلي والاسلامي ، وعلى حكايات شعبية واساطير ومبالمفات خارقة للعقول ، تسيطر على ذلك روح الفروسية العربية (١٤) فعترة السيرة هو نفسه البطل الذي يقضى الوغى ويعفد عند المغم . هو فارس بني عيس ، وبني عيس تتمثل فيهم مفاهيم الفروسية العربية ، فهم كما وصفهم راوي السيرة شجمان : « سمتهم العرب فرسان المنايا والموت الزؤام » فشاع ذكرهم في ذلك الزمان وساروا يحمون الطريد ويؤمنون الخائف والفزعان ويجبرونه من كل انسان ولو ان طالبه ملك او سلطان ، ومن ظلمهم بادروه بالحرب والكفاح وتسبوه بحدود السيف واسنة الرماح ، والفارس منهم لا يوتئ ولو اثنى بالجراح ، ويرى الموت احلى من شراب الكاس الراح .. وكان لهم ملك من اجل ملوك الزمان يقال له زهير بن جذيمة ، وكان كاملا في كرمه وشجاعته وفضله ، وله ابطال وفرسان تركب لركوبه وتنزل لنزوله . « (١٥) وعنتر يعشق ابنة عمه مالك فيفجر حبها فريخته بينابيع من الشعر ، ويكون واحدا من اصحاب الملققات . (١٦) تلك هي صورة مختصرة لعنتر السيرة ، وهذه الصورة تعكس المفاهيم التي وردت في كتب التراث اعلاه . وسوف نتعرض لكل ذلك بالتفصيل .

ان سيرة عنتر هذه لغتت انظار المستشرقين المتخصصين بدراسة الفكر الالاساني خلال العصور الوسيطة ، وذلك منذ ما يقارب قرنين

من الزمان (١٧) . وقد قدمت على مستوى الدراسات الاوربية من قبل هامر - برجستال في مقالات ظهرت في المجلة الآسيوية سنة تسع عشرة وثمانمائة والف . ثم قدم السيرة الى ميدان الادب المقارن المشرق دنلوب لايبرخت وذلك سنة احدى وخمسين وثمانمائة (١٨) واصبحت بعد ذلك موضوعا مفضلا للدرس والمقارنة ، فقد احبب بها المشرق تايين ووضع عنترة مع ابطال وفرسان الادب الاوربي الوسيط كرولاندر والسيد وسيجفريد وغيرهم ، ورأى ذلك في عنتر انهودج للفارس الاوربي ، اما رينو فقد رأى تقيض ذلك ، وقال ان سيرة عنتر تقليد ومحاكاة للافكار الاوربية . وتحدث اخرون في موضوع السيرة وذلك في كتب خاصة او ضمن حديثهم عن الالدين العربي والاوربي في العصر الوسيط . ومن بين هؤلاء المشرقين بروكلمان وكولنديزير ، لامارتين ، هاملتون ، ثوربك ، نكلسون ، واخرون (١٩) .

ان الاسباب التي دعت هؤلاء الكتاب الى الاهتمام بترجمة سيرة عنتر ودراستها وتحليلها تعود الى وجود حكايات مشابهة لها ظهرت في فرنسا وفي انحاء اخرى من اوربا منذ اوائل العصر الوسيط وعرفت بالرومانس . وكلمة رومانس تعني اللغات المحلية المتفرعة من اللاتينية والتي نشأت في بلدان قرب اوربا بعد انحسار الامبراطورية الرومانية عنها ، فظهر الرومانس الالقي الفرنسي ، الاليطالي ، الالاباني ، البلقاني ، وغيرها ، ثم اطلقت الكلمة على الادب الذي ظهر بتلك اللغات ، وفي فرنسا قبل غيرها من الالقطار الاوربية . ومعظم هذا الادب يتكون من حكايات تدور حول فارس يمتطي جواده ويشهر سلاحه في سبيل تحقيق عدالة ، او من اجل امادة حق سليب ، او للاخذ بالثار . وقد اصبحت حكايات الفروسية تلسك حكايات واشعارا تتحدث عن عشاق يقاسمون الالام ويقاومون اقسى الظروف في سبيل المرأة التي يعشقون (٢٠) .

لقد بدأت تلك الحكايات بالظهور في فرنسا قبل غيرها من الالقطار الاوربية كما ذكرنا . وكانت تدور حول مقاومة جيوش شارلمان للعرب (الممثلين) كما كانوا يدعون في اوربا آنذاك . واقدم حكاية من هذا النوع هي حكاية رولاندر الشعرية ، او اغنية رولاندر التي قيل ان ناظمها هو احد التروبادور . وتعتبر هذه الحكاية احسن واحدة في مجموعة شعرية تدعى اغاني البطولة . وكانت تنشد في الساحات او تقنى في قلاع نبللاء وامراء القرون الوسطى . وليس لرولاندر بطل هذا الرومانس شخصية يثبتها التاريخ (٢١) .

تبدأ الحكاية الشعرية بالحديث عن شارلمان الالمراطور الذي ما زال جيشه - كما تقول الحكاية - في معركته ضد العرب في قرطبة منذ سبع سنوات .

رولاندر اشجع فرسان الالمراطور شارلمان ، يقابل مع صديقه ورفيقه في السلاح ومن مهم ، يقابلون - وهم قلة - جيش العرب . رولاندر الذي يستطيع ان يقهر العالم بسيفه « ديورندال » يلتقي بمبارزات مع فرسان العرب .

يقتل رولاندر ، فيهب شارلمان ممتطيا جواده تستندور ، ويمضي بفارسائه طالبين الثار من قتل الفارس رولاندر (٢٢) .

وهناك حكاية السيد ، والسيد هو رمز لفرسان اسبانيا القوميين ، اصبح ابتداء من سنة مائتين والف للميلاد بطلا لمجموعة من اشعار الفروسية التي لا يعرف اسم واضعها او واضعها . يقرب الخصوم فيقتلون عشرات تحت حصانه ، يهرب الالوف خائفين من الاسد الهائج ، حتى يستيقظ السيد من نومه ، ويتقدم من الوحش الثائر فيخضع ويستكين ، يهزم السيد كل من يقف في طريقه ، ويتخذ من فالنسيا عاصمة لدولة يكون هو بطلها المطلق (٢٣) .

اما قصة الفارس العاشق سيجفريد وحبيبتة الجميلة كريمةهد فهي من الحكايات التي ظل الناس يرددونها ، دون ان يعرفوا اصلها . والمجموعة الالصلية الماتية ، ذكر انها كتبت حوالي سنة مائتين والف

الفرنسية القديمة ، والمعنى الحرفي لهذه الكلمة كما تورده القواميس الأوربية هو : فرسان مسلحون ، ومن هنا ينشأ مفهوم العلاقة بين الفارس وحصانه ، وبينه وبين سلاحه (٢٩) فالاهتمام بالخيول والسلاح وارد في ادب الفروسية الأوربي والعربي معا . ولكل فارس حصان يغالي في وصفه ، ويعتز به ، ويعامله معاملة الرفيق العزيز . نذكر من تلك الخيل بايكا حصان السيد ، وتسنودور حصان شارلمان ، وفانيتو حصان رولاند ، وتاجيرون حصان جانيلون وبيار حصان رينودي مونتوبان الذي قيل انه هرب بعد موت فارسه لكيلا يخدع سواه (٣٠) اما في دنيا العرب فقد ورد من اسماء الخيل واصافها ووجوه الاعتزاز بها ما لا يستطاع حصره في بحث كهذا . نكتفي ببعض الذي ورد في سيرة عنترة فنذكر جروة فارس شلاد ، والقمصاء فارس زهير ، وداحس فارس قيس بن زهير ، والفراء فارس حذيفة ، وسكاب فارس مفرج بن واثب . واما خيول عنترة فكثيرة اشدها الابجر بن النعام الذي تقول السيرة انه انطلق بعد وفاة عنترة هاتما في الروابي والقفار فلم يدركه احد ، كما فعل بايار تماما (٣١) .

اما بالنسبة لسلاح فرسان لكل فارس من فرسان الحكايات الأوربية سيفا او رمحا او بوقا بصاحبه ، ويكون ساعده الذي لا يقل في نصرة اصحابه والفتك باعدائه . ولدينا في دنيا الغرب اكسكاب سيف الملك آرثر ، بالمونغ سيف سيجفريد الذي كسبه من قادة النبلوغ ، ولدينا بوق رولاند السحري اوليفان ، وسيفه ديورندال الذي ضرب به الحجر فكسر الحجر ولم يفل السيف ، كما يستعمل رولاند الزراس او الزراق (٣٢) وحين نعود الى الشرق نجد الكثير عن الاسلحة العربية واسماؤها واصافها وطرق صناعتها مما يشير الى اهتمام الفارس العربي بهذا السلاح الذي يساعده على تحقيق النصر للصدوق والموت المحقق للعدو . ونكتفي هنا بالإشارة الى « الظاهي » سيف عنترة الذي استطاع به ان يفل سيفا من اقوى السيوف العربية ذلك هو ذو الحياة ، سيف ظالم بن العارث الذي ضرب به الحجر فكسر الحجر كما ورد في قصة رولاند (٣٣) وقد كسب عنترة سيفه بعد قتله ابن الامير العارث بن النبع ، وقد قيل ان ابن العارث هذا لا يستحق السيف لكونه ظالما لا يجسد استعماله ، والظاهي مصنوع من حجر النجوم او الصاعقة كما يصفها راوي السيرة ، ومن هنا كان سر قوته وجماله (٣٤) .

الفروسية - كما رأينا - تنطلق من ركوب الخيل وحمل السلاح، ولكن ، ليس كل مسلح ركب الحصان فارسا ، لان للفروسية مثلها الشريفة . فالفارس يلبي نداء الواجب ، وينطلق للدفاع عن الحرية الهيدة ، ويهرع لحماية المستغيث المظلوم . ولا يقصده عاق عن الاخذ بالثار ، وهو يفضل الموت على العار ، وقد قدمنا نماذج عن تلك الصور سابقا . فانغية رولاند - اقدم تلك الحكايات الأوربية واجودها - تتحدث عن الفارس الذي ابدي من صنوف البطولة والتفحية في ساحات القتال ، ومن الصبر على مقارعة الابطال ، ومن الكرم والشهامة ما جعله انشودة الاجيال (٣٥) ، وفوق ذلك ، فان تلك الحكايات ملأت بأخبار هؤلاء الفرسان الذين يصادعون الاسود ، ويقتلون الفيالان (٣٦) .

لقد وجد المستشرقون في سيرة عنترة ، مئات الحوادث والموافق والاشعار التي تعكس مفاهيم مشابهة لما ورد في أوروبا في العصر الوسيط . فعنترة هو المدافع عن حقوق قومه ، وحامي عشيرته حين تتواتر عليها الاعداء ، وتسد بوجهها السبل ، ينطلق مليا النداء ، نداء مليكته او ابيه او عمه ، ويعمل ما توجهه المروءة والنخوة ، يستقبل الاعداء الفزاة بقلب اصلي من الحجر ، وطن يسبق لمح البصر ، فينثر الفرسان الصناديد ، تحت اقدام حصانه (٣٧) وهو في كل مرة

للميلاد ، وهي تتحدث عن وجود فتاة جميلة لا مثيل لها في العالم اجمع اسمها كريمهلد ، وهي شقيقة لثلاثة ملوك يحكمون بوردجندي الواقعة على ضفاف الراين . لقد رفضت كريمهلد جميع الملوك والامراء الذين تقدموا لطلب يدها . وقد وصلت انباء جمال الفتاة ونبلها ودلالها الى مسامح سيجفريد ، فاجبها قبل ان يراها . ركب الفارس وصحبه الى بلد الحبيبة ، وكانت انباء فروسيته قد سبقته الى ذلك البلد . فهو اعظم فرسان الدنيا ، قتل النبلونغ وأخذ كنزهم المشؤوم وكسب سيفه الذي لا يفل ، وكذلك حصل على الصبابة المسحورة التي تخفي لابسها عن الابصار . سيجفريد - كما تموره الحكاية - فارس لا يقاوم ، لقد قتل التنين مرة واستحم بدمه ، فاصبح جلده قويا لا تؤثر فيه ضربات السيوف وطعنات الرماح . حياة سيجفريد حرب وحب وما يتخلل ذلك من مكائد وملابسات يثبت فيها الفارس كفاءته في ميدان الشجاعة وفي ميدان الشهامة والخلق النبيل معا (٣٤)

وهناك بين قصص الرومانس الأوربي قصة اوكاسين ونيكولايت، وهي شعر ونثر . يعشق اوكاسين النبيل فتاة جلبت من بلاد الكافرين، رباها ريان السفينة الذي جلبها ، فاعتنقت المسيحية ، وكانت كما يراها اوكاسين ممنازة بالجمال والشرف ، وقليل لها ان تكون امبراطورية القسطنطينية ، المانيا ، فرنسا ، او انكلترا . ومع ذلك فان والد اوكاسين يرفض تزويج ابنه من فتاة عديمة النسب ، فابنه فارس نبيل ، ولا بد له ان يتزوج بواحدة من بنات النبلاء . واتمضى الحكاية بين مبارزات وحروب وحب (٣٥) .

لقد صحب تلك الحكايات - كما ذكرنا - ظهور نوع من اشعار الغزل وذلك لأول مرة في مقاطعة بروفنس الفرنسية المتاخمة للحدود الاسبانية منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وقد اطلق النقاد على شعراء هذه المدرسة اسم التروبادور ، ولكل من هؤلاء الشعراء قصة حب وقصائد غزل . فقد ذكر ان احدهم وهو جوفري دودال، وهو نبيل وامير بلدة ساليا ، احب كوتنيسة طرابلس ولم يكن قد رآها ، احبها من الاخبار المدهشة التي سمعها عن جمالها وكمالها من الفواه الحجاج العائدين من انطاكية ، ونظم الاشعار في حبه . ثم دفعته الرغبة في رؤيتها الى حمل الصليب والسفر عبر البحر . فمرض من سدة الحب والشوق مرضا كاد يودي بحياته وهو على ظهر السفينة ، وظن لشدة اساه انه سيموت قبل ان يراها . ولكن الركاب نجحوا في انزاله الى طرابلس وهو في رفقته الاخير ، وكانت الكوتنيسة قد سمعت بخبره فاسرعت لزيارته وهو على فراش الموت واخذته بين ذراعيها ، فادركتها انها الحبيبة ، وصلى شاكرا الرب الذي امد في حياته ومكنه من رؤيتها قبل موته . ومات بين ذراعيها ، فامرت بان يكون له جناز ومدفن في العبد ، ثم ارخت قناعها حزنا عليه (٣٦)

اما وليم التاسع كونت بواتيه ، فتخبرنا المصادر بانه اول شاعر في مدرسة التروبادور ، وكان قد قاد جيشا قوامه ٣٠٠ الف رجل في حملة صليبية الى الشرق ، وغاب مدة ١٨ شهرا عاد بعدها من يافا خاسرا الحرب ومزودا بفن الحب وفن الفناء (٣٧) .

لقد ادرك المستشرقون مدى التشابه بين المثل والمفاهيم التي تعكسها حكايات الفروسية الأوربية - التي قدمنا نماذج منها اعلاه - وبين مفاهيم ومثل الفروسية الواردة في التراث العربي عامة وفي سيرة عنترة خاصة ، حتى ان الباحث ليدرك الملل وهو يحاول ان يجمع بالتفصيل اوجه الشبه ونقاط التلاقي في هذا المجال (٣٨) . فالفروسية في أوروبا يعبر عنها بكلمة Chivalry مأخوذة من

العاشق الذي دفعه الحب الى ان يعمل المستحيل ليرقى الى المستوى الذي يليق به ، وهذه نماذج مما جاء في هذا الصدد ، وهي شبيهة نساء وروحها بما قدمناه من ادب الغرب . تقول سيسرة عنتر : « عيلة كاتت سببا لفصاحته ومقاومته الابطال وشجاعته وسهولة تجرته لسانه ، لانه كلما ذكرها غاض بالشعر لسانه وطلبت نفسه المنزلة العالية وقوى جنانه .. » ويقول راوي السيرة في مكان آخر : « حين خلا عنتر بنفسه بكى وانتحب وقاض دمه وانسكب واشتل قلبه والتهب ، فعند ذلك نطق لسانه بالادب كما جرت عادة الصرب » (٤٤) . ان هذا التشابه بين مفاهيم الرومانس الاوربي وبين ما ورد في سيرة عنتر جعل المستشرقين والمتخصصين في هذه الدراسات يعتقدون باحتمال تأثر أحد الجانبين بالآخر ، ومعظمهم يرجح تأثر الجانب الاوربي بالجانب العربي ، فيقول بعضهم ان فروسية العصر الوسيط مأخوذة حتما من العرب (٤٥) ويقول آخرون : كان العرب عظماء في الفروسية مشهورين في العالم بذلك ، ويعد الكلمات العربية الداخلة في اللغة الاسبانية والبالغة على الفروسية ، ويخصى ما ورد في حكايات الرومانس من كلمات عربية ، فالسيد موضوع الحكاية الاسبانية هي كلمة (السيد) العربية ، ومؤلف هذه الحكاية يفتح بعض الابيات باداء النداء العربية (يا) ويستعمل كلمة (حتى) العربية وكلمة (البشري) وغيرها ، كما ان المزاس ، وهو السلاح الذي يستعمله سيغفريد هو (المزراق) العربي . ويؤكد المستشرقون بان سكان اوربا قد استعاروا من العرب مع قوانين الفروسية احترام المرأة ، وان ادب التروبادور بما فيه من غناء باسم المرأة ومن تمجيد للحب العفيف يكاد ان يكون مترجما من العربية ، حتى ان كلمة تروبادور نفسها مشتقة من كلمة (طرب) العربية على ما يري بعض المستشرقين (٤٧) .

اما الاسباب التي يضمها هؤلاء المستشرقون للدفاع عن وجهة نظرهم هذه ولدحض ما يراه المناقضون فاهمها ما يلي :

اولا : الانسجام بين المثل والمفاهيم والافكار الواردة في سيرة عنتر وبين مفاهيم ومثل الفروسية في التراث العربي من جهة ، وفقدان مثل هذا الانسجام بين مفاهيم ادب العصر الوسيط وبين عامة التراث الاوربي من جهة اخرى .

ثانيا : ظهور تلك المفاهيم في الادب الاوربي في فترة العصر الوسيط وهي فترة تفوق الحضارة العربية مع توفر الاحتكاك بين العرب واوربا .

يرى المستشرقون ان الروح التي تسيطر على سيرة عنتر هي روح الفروسية البدوية ، فهي تعكس اليزات الدائمة الاصلية لحياة العربي في بداوته ، وان ما ورد في السيرة بهذا الخصوص ليطابق ما ورد في الشعر الجاهلي عامة وفي شعر عنتر خاصة من تأكيد على الشجاعة والمروءة والوفاء واحترام المرأة والتفني باسمها (٤٨) كما ان شخصية عنتر السيرة مطابقة لشخصية عنتر الفارس الشاعر الجاهلي الذي تحدث عنه عدد كبير من كتاب التراث كما بينا في مقدمة هذا البحث . وان هناك عددا كبيرا من الشخصيات والاحداث الواردة في السيرة مؤيدة في كتب التراث (٤٩) .

حين نمود الى اوربا نجد ان المتحدثين عن فروسية العصر الوسيط يذكرون ان اصلها غامض مبهم ، وان الافكار والمفاهيم والمثل التي تتضمنها حكايات الفروسية لا تنطبق باي حال على ما ورد في التراث الاوربي وانما تناقضه تماما ، فهي نظريا تتحدث عن فرسان يحاربون من اجل تحرير الارض واغاثة الضعفاء والمظلومين ، اما الواقع التاريخي فيذكر بان الارض ومن عليها كانت تباع وتشتري من قبل رؤساء الاقطاع . ويذكر المختصون ان المرء كلما امن في

يصون اللعاب ، ويرعى الحرير ، ويفعل فعل الرجل الكريم ، لقد تشارك مع النساء والاطفال حين غادرت عشيرته الديار لقتال بني تميم ، فلما اغارت جيوش الاعداء وسبت النساء ومهمن ابنة عمه عيلة ، ثار عنتر ثورة الفارس الجبار وكفى عدوا وراء الفارس وجذبه من على ظهر جواده ورماه على ام راسه فقصص رقبتة واخذ حصانه وسلاحه ، ثم ركب الجواد وكر على القوم قتلا وجرحا فشددهم تشريدا وحين دارت على عيس الدوائر وزعق على ديارهم اليوم والغراب قال له ابوه : اركب جوادك وكر . فكر وفعل فعلته مغرقا صفوف الاعداء وحاميا الرجال والنساء . وحين منع عبد شاس ابل العجوز من ورود الماء ، ودفعها وطرحها ارضا ، ففزع عنتر على عبدالامير فرضه رضيا دون ان يابه للمواقب التي قد يلقاها . وعنتر معروف بقتله الذئاب والوحوش الاخرى ، حتى لقد قتل اسدا هاجبا وهو موقى الرجلين (٣٨) وهو عزيز النفس ، نفور من الضيم والهوان ، كريم لا يؤثر ذاته بشيء دون الآخرين ، وقد اورد راوي السيرة قول عنتر لقومه : « وانا وحق ذمة العرب وشهر رجب لو ملكت كل مال الارض لا اطعم منه في عقال ، وما قصدي الا رضاكم على كل حال » وكما كسب اموالا واعلاقا ثمينة وزعها على الناس . وحين قسم الملك زهير الفنائم بين الرجال بالسوية ، اخذ كل منهم سهمه ، ووهب عنتر جميع حصته لابيه وعمومته ، وحين لا يملك شيئا فانه يخلع ثيابه الثمينة على عمه ويبقى مرتديا القميص وحده (٣٩) وقد روى كاتب السيرة اخبار فرسان آخرين يفعلون ما فعله عنتر ، وتحدث عن عروة الصماليك الذي كان يجمع الضعفاء والارامل والايتم ويقوم على حمايتهم واعالمتهم (٤٠) وقد شهدنا في قصص الفروسية الاوربية ان رولاند كان يوزع الفنائم من خيول اصيلة وحرير وسلاح على ابناء قومه (٤١) .

لقد صحبت حكايات الفروسية - كما ذكرنا - حكايات حسب واشعار غزل ظهرت فيها المرأة وكانها الهدف الاسمي الذي يسعى الرجل في سبيل نواله ، وبدا الحب في ذلك الشعر وهو عاطفة نبيلة وتبعث على النبيل . وواضح ما يكون ذلك في شعر التروبادور البيروفسيين . وقد رأينا سيغفريد الذي قتل الفسول واستحم بدمه يقطع الغابات والجبال متجسما الاهوال ومشاركا في اخطر البازوات لكي ينال الحبيبة الحسناء . ورأينا التروبادور الذي يمتزج في خياله نداء الحب بندااء الحرب ، فيحمل الصليب قاطعا البحار ومتجها الى الشرق ليحظى برؤية الطرابلية الحسناء من جهة وليؤدي واجبه الفروسي من جهة اخرى . وقد غنى جوفري رودال واصحابه التروبادور الآخرون الحب الطاهر العفيف وتحدثوا عن مفعول هذا الحب في رفع الانسان وتجميله بالخلق النبيل وفي بعث الافاني الحلوة . يقول اندريه الكاهن وهو يتحدث عن الحب العفيف في كتابه (فن الحب) : « انه الحب الذي يجب ان يصبو اليه الجميع بكل قلوبهم لانه حب يزيد على الايام بلا نهاية ، ولا يندم أهله ، هذا الحب متميز بكونه فضيلة وداعية الى اكمال الشخصية » ويستطرد قائلا : « ان هذا الحب يحول الرجل اللفظ الى طريف لين العريكة ، ويزود الرجل الوضيع المنشأ بالخلق النبيل ، ويجعل المتكبر بالتواضع ، وان المحب القادر على البخل مستعد لاسداء المعروف لاي كان من الناس ، ومن كان صحيح الحب فلا يمكن ان يكون شرها طماعا (٤٢) » وفوق ذلك فان الحب والشعر صنوان في الرومانس الاوربي ، اذ يقول التروبادور برنارد : « لا جدوى في غناء لا ينبعث من القلب ، ولا يكون القلب ينبوع غناء ما لم يرهفه الحب الصادق » (٤٣) .

ان العشق الذي تحدث عنه راوية سيرة عنتر لشبيه بهذا الحب الذي نطرح عنه الحكايات والاشعار الواردة في الادب الاوربي خلال العصر الوسيط ، فمتنتر الفارس الذي يقهر الجيوش ويصارع الاسود ، هذا الفارس يبكي من الحب ، انه مثال المحب الرفيسط الفؤاد الوفي الذي لا يعرف القدر والسلوان سبيلا الى قلبه ، انه

الهوامش :

- ١ - B. Heller « Sirat Anter », Encyclopedia of Islam , Vol . 1 , 518 - 521 , and R , Blachere « Antara », Ibid , 521 - 522 .
- ٢ - انظر : الاغانى ٧ : ٢٩٩ - ٣٠٧ ، الشعر والشعراء ١ : ١٧١ - ١٧٢ .
- البيان والتبيين ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، الكامل : ١ : ٢٤٠ ، العقد الفريد ١ : ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، وخزانة الادب ١ : ٦٢
- ٣ - الاغانى ٧ : ٣٠٧
- ٤ - نفس المصدر ٧ : ٣٠٥ - ٣٠٦ ، ٣٠٢
- ٥ - العقد الفريد ١ : ١٢١
- ٦ - الكامل ١ : ٢٤٠
- ٧ - الاغانى ٧ : ٣٠١ ، خزانة الادب ١ : ٦٢
- ٨ - العقد الفريد ١ : ١٠٩ ، ١٥٣
- ٩ - الشعر والشعراء ١ : ١٧٢ - ١٧٣
- ١٠ - الاغانى ٧ : ٣٠٤
- ١١ - ديوان عنتر ، تحقيق محمد سعيد المولوي ١٥١ ، الشواهد الشعرية كلها من نفس المصدر وسوف لا نذكر الصفحات تعاشية للتكرار .
- ١٢ - سيرة عنتر بن شداد . الاصمعي ، المكتبة التجارية بمصر ١٣٦٦ .
- ١٣ - انظر : Heller , loc , cit .
Ibid . , 518 - 519 .
- ١٤ - Ibid . 519 . , and R . Nicholson « A Literary History of the Arabs , 114 .
- ١٥ - انظر سيرة عنتر بن شداد ٧
- ١٦ - انظر سيرة عنتر بن شداد ٧ .
- ١٧ - Bibliotheque Univereselle des Romans (J A , 1834 , XIII , 256) , quoted by Heller , op . cit . 518 .
- ١٨ - Dunlop - Liebrcht ,Gesthichte der Prosodichtungen , XIII - XVI quoted by Heller , loc . cit .
- ١٩ - B. Heller , 518 - 521 : Brockelmann , Geschichte der Arabischen Litteratur , SI , 45 , R . Nicholson op . cit . 459 , T . Hamilton , Anter , A Beduin Romance , and H . Thorbeck , Antara .
وانظر الجيولوجيا في نهاية المقالة المشار اليها اعلاه(هامش رقم ١)
- ٢٠ - W . D . Elcock , The Romance Languages 18 , 213 , and C . Gillie , Longman Companion to English Literature , 752 .
- ٢١ - C . Jones , ed . , Medieval Literature in Translation , 520 , and P . Harvey , The Oxford Companion to English Literature , 151 , 672 , and the Encyclopedia Britanica . Vol . 19 : 389

دراسة التاريخ رأى ان الفروسية تجديد يكساد ان يكون برمتها شعريا ، فالباحث لا يصل قط عن طرق الوثائق الاصلية الى تحديد البلد الذي كانت تسود فيه هذه الفكرة ، انها تبدو وكأنها صورة مرسله من بعيد وهي تناقض التاريخ ، فبينما يتحدث المؤرخون عن رذائل البلاط واستعباد الشعوب ، نجد الشعراء بعد فترة من الزمن يبعثون تلك الفترة بعينها متلاثة بالفضائل والولاء . وليس بالامكان ان تجد في التاريخ الاوربي فارسا شاعرا عاشقنا اسمه رولاند او سيجفريد او السيد من تنطبق عليهم اوصاف الفروسية وشروطها وشماثلها .(٥٠)

اما بالنسبة لما ورد في اشعار الفول البروفنسي ، فقد اتفق المختصون في هذا الحقل على ان الموقف من المرأة ومن الحب معا كان غريبا كل الغرابة عما ورد في التراث الاوربي : اغريقيا كان ام رومانيا ام مسيحيا .(٥١)

ان غرابة مفاهيم الفروسية والحب الواردة في رومانس العصر الوسيط عن التراث الاوربي جعل المستشرقين يفتشون عن مصدر لها في آداب الامم الاخرى المعاصرة ويعينون المصدر العربي بالذات حيث كانت الحضارة العربية قد بلغت اوجها في جميع المجالات ، وكانت طرق الاتصال والاحتكاك متوفرة بين العالمين العربي والاوربي وذلك خلال ثمانية قرون من الوجود العربي على القارة الاوربية . لقد عبر طارق بن زياد المصيق المعروف باسمه سنة احدى عشرة وسبعمائة للميلاد ، واستمر العرب على الاراضي الاوربية حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٨٤ . وكان العرب من جهة اخرى يحتلون معظم جزر البحر المتوسط والشواطئ الايطالية ، وبقيت ممتلكاتهم هناك مدة تزيد على ثلاثة قرون (٥٢) .

لقد ذكر المتخصصون الاوربيون ان اكسفورد ، بادو ، وباريس كانت ترسل مترجميها ونساخها الى المناطق العربية ليقوموا بنقل الكتب والاعمال العربية الى اللغة اللاتينية (٥٣) ، وقد اعترف الاوربيون انفسهم بالسرعة المعجزة التي كان يتم بها انتشار اللغة العربية في اوربا ، الامر الذي دعا الاساقفة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية (٥٤) كما اضطر اسقف قرطبة الى اطلاق شكواه التي اعلن فيها بان الشباب الاوربي بدأ يفقد لسانه اللاتيني اذ انه شغف بالفصاحة العربية وبالترنم بقصائد القافية الموحدة ، ومن الاطريف ان نذكر هنا ، ان اغنية رولاند التي ترنمت بالفروسية لأول مرة في اوربا كانت قد نظمت من قبل احسد التروبادور على شكل مقاطع ذات قافية موحدة على الطريقة العربية . وقد تلتها حكايات فروسية شعرية وثرية ظهرت في انحاء اخرى مصحوبة بافاني التروبادور الجارية فيها كثير من المفاهيم والالفاظ والاوزان العربية (٥٥) .

والخلاصة ، ان العصر الوسيط ، عصر الرومانس ، زمن ازدهار الفروسية الاوربية ، هو الفترة التي تفوقت فيها الحضارة العربية سياسيا وفكريا ، وهو عصر احتكاك واتصال بين العرب واوربا ، اعطت فيه الحضارة العربية اوربا عطاء جزيل في جميع المجالات العلمية والادبية والفنية (٥٦) واما في مجال ادب الفروسية فان ذلك الادب يعكس صورة لواقع حياة البدوي ، وهو جزء لا يتجزأ من تراثنا القومي ، في حين ان الفروسية الاوربية تجديد لا يعكس واقعا ، ولا يمثل امتدادا لتراث اصيل . لذلك كله رجح المستشرقون تاثير الفروسية العربية على مفاهيم الفروسية الاوربية ، واعترفوا باصالة الفارس العربي ، وبان عنتر بن شداد العبيسي يكون النموذج لفارس اوربا .

بشداد

- ٤٤ - سيرة عنترة ٢٣ - ٢٤ ، ٢٧ ، ٧٠ ، ٩٦
B . Heller , loc . cit .
- ٤٥
Nicholson , op . cit , 88 .
- ٤٦
Elcock , op . cit . 279 , 288 - 291 .
- ٤٧
Nicholson , op . cit . 87 - 88 . A . R . Nyki ,
Poetry and its Relations with the Old Provençal
Troubadours 375 ; G . Crunebaum , « Avicenna's
Risala , XI (1952) , 233 - 238 , and A . Denomy,
«Concerning the Accessibility of Arabic Influence
to the Earliest Provençal Troubadours » , Medieval
Studies , XV (1953) , 147 - 158 .
Hispano - Arabic Literature
- وانظر فون فرينباوم : دراسات في الأدب العربي ، ترجمة
احسان عباس ٢١٤ - ٢١٦ .
- B . Heller , loc . cit . - ٤٨
- B . Heller , loc . cit . - ٤٩
وانظر مقدمة البحث اعلاه
- ٥٠ .
- The Encyclopedia Britanica , Vol . 13 , 430 - 433
وانظر : تقاليد الفروسية عند العرب (٦)
وانظر اعلاه الهوامش : ٢٢ و ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
- ٥١ - ٥٢
C . S . Lewis , The Allegory of Love , 3 ,
M . Valency , In Praise of Love , I . Denis de
Rougemont , Passion and Society , Trans . M .
Belgion , 76 , and I . Singer , The Nature of
Love , 51 - 52 .
- ٥٣
M . Hume , Spanish Influence on English
Literature , 13 - 14 .
- ٥٤
M . Hume , The Spanish People : Their Origin
Growth and Influence , 105 .
- ٥٥
H . Farmer , Historical Facts for the Arabian
Musical influence , 8 .
- ٥٦
W . R . Lethaby , « Medieval Architecture »
in C . G . Crump and E F . Jacob , ed ;
The Legacy of the Middle Ages , Oxford , 1951,64
- ٢٢ - انظر :
C . Jones , op . cit . , 520 - 541 .
وانظر هامش ٢١ اعلاه
- ٢٣
Ibid . , 555 - 556 . Harvey , op . cit , 162
- ٢٤
P . Harvey , op . cit . 552 , 720 .
وانظر
The Encyclopedia Britanica , Vol . 20 , 619 .
- C . Jones . op . cit . 568 . - ٢٥
- ٢٦
H . J . Chaytor , The Troubadours , 44 - 45 .
- ٢٧
A . Foulet , « William IX2 , The Encyclopedia
Americana , Vol . 28 , 784 .
- ٢٨
B . Heller , loc . cit . and Nicholson , op
cit . 88 . and W . B . Chali , La Tradition
Chevaleresque des Arabes
مترجم للعربية : تقاليد الفروسية عند العرب ٧ .
B . Heller , loc . cit . - ٢٩
Ibid . 518 - 521 . - ٢٠
Ibid . 519 - 520 .
- ٣١ - وانظر سيرة عنترة ٥٨ ، وحبلى الفرسان ٢٤ - ١٧٦
- ٣٢ - انظر اعلاه هوامش ٢٢ و ٢٣ و ٢٤
Elcock , op . cit . 245.
- B . Heller , loc . cit . - ٣٣
Ibid . 520 .
- ٣٤ - انظر سيرة عنترة ٨٧ - ٨٨
٣٥ - انظر اعلاه هامش (٢٢)
- ٣٦ - انظر هوامش ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ اعلاه
- ٣٧ - انظر سيرة عنترة ٢٦ - ٢٩ ، ٣٦ ، ٦٨ ، ١٠٥
B . Heller , loc . cit .
- ٢٨ - انظر سيرة عنترة ٨١ ، ١٧٥
Ibid . 519 - 520
- ٣٩ - نفس المصدر ١٣٧
Ibid . 520
- ٤٠ - نفس المصدر ١٢٦
B . Heller , loc . cit .
- ٤١ - انظر هامش ٢٢ اعلاه
- ٤٢
Andrea Capellanus , The Art of Courtly
Love , 122 , 13 .
- ٤٣
S . Nichols , ed The Songs of Bernard de
Ventadorn , 81 . .